الفصل الثالث

عمل الحواريين

(ا) الحواريون فلسطينيون . ما هي وجهة نظرهم ؟ – هناك يهود خارج فلسطين : الأمة اليهودية فى المهجر – كيف تكونت هذه الأمة – تنظيم مجتمعاتها – دعوة معابدها – كيف وصلت هذه المعابد إلى وفاق مع الفكر اليونانى – روح رواد المعابد اليهودية فى العالم اليونانى : الخصائص التى جعلت هذه الروح على استعداد لقبول الدعوة المسيحية .

(ب) التأليف الدينى لدى الأمة اليهودية فى المهجر – المانداثيون – الناظوريون – الهيزستيون والسابازيون – كيف مهدت هذه الفرق للمسيحية .

(جـ) كيف عبرت عقيدة الحواريين الطريق إلى مجتمعات الأمة اليهودية بالمهجر ؟ روايات مجموعة « أعمال الرسل » – بارنابا فى أنطاكيا – غموض وضعف عمل الحواريين فى فلسطين .

(١)

كان أصحاب عيسى وأتباعه الذين اطمأنوا إلى قوة إيمان القديس بطرس ، فتجمعوا – بعد فترة الرعب الأولى – ليحاولوا إعادة بناء الحلم الضائع واسترجاع الآمال التى غرسها أستاذهم فى القلوب ، كانوا يهوداً سذجاً بسطاء ليس لهم شأن فى قومهم ، ولا يمتازون بثقافة كبيرة وعلينا ألا ننسى ذلك ، فآفاقهم الفكرية لم تكن بأوسع أو أبعد حدوداً من أفق عيسى ، واقتصر طموحهم على الرغبة فى دفع « الخراف الضالة من بيت إسرائيل » نحو طريق النجاة . وجميع الدلائل تحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا شديدى التعصب لبنى جلدتهم من اليهود – على الأقل فى بدء الدعوة – وفاقوا فى ذلك عيسى نفسه ، وكانت فكرة تبشير الوثنيين بعيدة كل البعد عن عقولهم ، بل الواقع أنه كان من ضروب المستحيل أن يتصوروا إمكان انتشار الإنجيل بين رجال لم يؤمنوا بالعقيدة اليهودية قبل ذلك .

ولكن عدداً وفيراً من اليهود فى ذلك العصر كان يقيم خارج فلسطين وكان يحسب حسابهم عند البحث فى شئون بنى إسرائيل .

وهناك أسباب عديدة دفعت بأجداد هؤلاء اليهود المقيمين خارج فلسطين إلى الهجرة خلال القرون الأربعة السابقة للمسيحية . أول هذه الأسباب كان ما فرضته ظروف تاريخهم : فبلادهم التى تحدها مملكة البطالمة بمصر والمملكة السلوقية بسوريا كانت ميداناً للكثير من المعارك التى خاضها المصريون والسوريون . وفى أثناء الغزوات أسر أولئك وهؤلاء الكثير من الناس ، ولم يعد

الأسرى بعد ذلك إلى وطنهم . وتكرر الأمر كثيراً خلال ذلك النضال الطويل من أجل الاستقلال الذى كافح فيه المكابيون ضد ملوك سوريا . ثم تكرر بعد ذلك لمصلحة الرومان عندما قاتلوا نطاكيوس الأكبر ، وعندما تدخلوا فى الفتن المحلية التى ثارت بفلسطين فى فترات مختلفة . ومن ناحية أخرى أظهر اليهود ، عند حالة حسن معاملتهم ، قوة ودأباً على العمل وإخلاصاً له . لذلك حاول البطالمة والسلوقيون أن يستقدموا مجموعات كبيرة منهم ، ونجحوا فى ذلك ، فاستقر بعضهم فى دلتا النيل وفى ليبيا ، وبعضهم الآخر ببلاد الليديين بفريجيا . وأخيراً فإن فلسطين لم تكن بالبلد الذى يختص بموارد للثروة لا تنفد فى حين أن اليهود قوم يمتازون بالتكاثر السريع ؛ ودعا هذا الكثير منهم – بعد أن ضاقوا بالعيش فى موطنهم الفقير – إلى البحث عن رزق جديد فى مختلف الأقاليم التى يسيطر عليها أسيادهم الأجانب ، ووجد عدد غير قليل منهم الرخاء والثروة حيث حلوا . لذلك لم يكن إغراقا كبيراً فى المبالغة الشعرية أن يعلن يهودى من الإسكندرية محدثاً قومه قبل مولد المسيح بقرنين من الزمن : « الأرض جميعاً ملأى بكم وأيضا البحار » .

وكان يخيل كذلك إلى العالم الجغرافى « سترابون » الذى عاصر المسيح أن الإنسان يجد اليهود فى كل مكان . والواقع أنهم كانوا قد انتشروا حول حوض البحر المتوسط كله ، غير أنهم لم يلتقوا فى جماعات كثيفة إلا بالمدن الإغريقية الكبيرة وبربوع ما بين النهرين ، ثم بروما – تلك المدينة التى كان يقيم فيها ، فى عهد الإمبراطور أغسطس ، حوالى اثنى عشر ألفا من اليهود .

أينما حل اليهود فهم عامة لا ينسون أصلهم ولادينهم ؛ لذلك نراهم يتكاتفون وينظمون صفوفهم ، ويسعون لدى سلطات البلاد التى يقيمون فيها

للحصول على حقوقهم الشرعية فى الحياة . وكانوا ينتظمون من الناحية الزمنية فى جماعات لها رؤساؤها وحكامها وقضاؤها وتقاليدها . أما من الناحية الروحية فكانت تجمعهم المعابد التى يقصدونها للاستماع إلى تلاوة النصوص المقدسة ، وللصلاة والتعبد الجماعى ، وكانت لهذه المعابد أيضاً حكوماتها الصغيرة ؛ وقد تعمد الجاليات اليهودية الكبرى – مثل تلك التى كانت بروما – إلى تقسيم أعضائها بين عدة معابد . وسمح الأمراء الإغريق والسوريون والمصريون لليهود المقيمين فى ممالكهم بكل ما طالبوا به من تنظيمات ، بل منحوهم امتيازات شتى . وسار الرومان على المنوال نفسه فأصبح بنو إسرائيل يتمتعون بدستور فعلى يحميهم فى سائر أرجاء الإمبراطورية . ولم يكن هذا الدستور يقتصر على السماح لهم بإقامة شعائر دينهم والتصريح لجماعاتهم بما تريد من نشاط ، بل ذهب فى العطف عليهم إلى حد مراعاة حساسيتهم الدينية ما أمكن مراعاتها ، ومحاولة إرضاء ميولهم ونزعاتهم فى كثير من الأحيان .

إلا أن أهل المدن التى كثر فيها اليهود كانوا ينظرون إليهم فى شىء غير قليل من الغضب ويناصبونهم العداء ، وذلك لأسباب عدة ، منها تلك الامتيازات العريضة التى ذكرناها والتى هيج تكبرهم الطبيعى من شعور الناس إزاءها ؛ ثم ذلك الاحتقار الذى كانوا يبدونه تجاه الديانات الوطنية والذى دفعهم إليه بالطبع ، فى كثير من الأحوال ، ما وجدوه من حماية السلطات ؛ كما كانت تؤخذ عليهم عيوب وتقاليد غير مألوفة ، نذكر منها على الأخص : غرابة الطقوس فى المعابد بالنسبة إلى عامة الوثنيين الذين لم يجدوا بها ما اعتادوه فى معابدهم ، وفرض الختان ، وتحريم بعض أنواع المأكولات التى أتت الشريعة الموسوية بتحريمها ، ثم كانت هناك فوق كل هذا افتراءات بالغة الأثر ضد اليهود

من تلك التى يؤمن بها عامة الشعب فى سهولة : أن طقوسهم الدينية تقتضى سفك الدم الآدمى ، أو أنهم يتجهون فى عبادتهم لرأس حمار .

وقد تميز العالم الإغريقى الرومانى بعداء محقق للسامية يكاد يصل إلى حد العنف والقسوة على اليهود ، ولولا مراقبة سلطات الأمن للأمر بشدة – وإن أفلت منها الزمام فى بعض الأحيان – لقاسى بنو إسرائيل الأمرَّين من ذلك الشعور . ولهذه الظاهرة التى ذكرناها منذ بداية حديثنا أهمية قصوى : ذلك أن شعور العداء والبغض لدى الشعب بالنسبة إلى اليهود سوف يتحول فى سرعة سريعة إلى المسيحيين[1] .

إلا أن اليهود فى مقابل هذا الشعور الشعبى العدائى ، كانوا يتمتعون عادة برعاية الحكام ، بسبب روحهم الطيعة وإخلاصهم للعمل وصبرهم عليه ، وكانوا كذلك يستثيرون اهتمام وعطف هاتيك الفئة من الناس التى لم ترض عن العبادات الوثنية الشائعة لما تشتمل عليه من أساطير بالغة العقم وطقوس مرذولة ونظريات فيما وراء الطبيعة لاسند قوى لها . وفى هذا العصر الذى شوهد فيه بدء رواج الأديان الشرقية الزاخرة بالعاطفة ، بدت اليهودية لهؤلاء الذين تدفعهم طبيعتهم إلى تفهمها وكأنها أبسط الأديان قاطبة وأسماها وأرقها .

ومن ناحية أخرى نرى طوائف اليهود التى اتصفت فى بلادها الأصلية بالحذر والانطواء وإساءة استقبال الأجنبى ، تتخذ فى بلاد الوثنيين أخلاقاً أكثر ليونة وكرماً . فقد أصبحوا لا يغلقون معابدهم أمام المشركين ، بل يتسامحون فيستقبلونهم على أعتابها ، ولا يمتنعون عن تعريف الراغبين منهم بأحكام الشريعة

---

(١) جمع « ت . ريناك » الوثائق اليونانية الرومانية الخاصة باليهود ، وترجمها وحققها فى كتاب له صدر بباريس عام ١٨٩٥ : « نصوص من المؤلفين الإغريق والرومان » .

الموسوية . وقد ترجمت هذه الشريعة إلى اليونانية ، فصار فى استطاعة كل إنسان مثقف أن يدرسها .

وهكذا اجتمعت شيئاً فشيئاً حول كل معبد طائفة من المريدين الذين ذهب بعضهم إلى نهاية الشوط فى اعتناق اليهودية ، فأقيمت لهم طقوس الطهارة والختان ، وفرضت عليهم القرابين للمعبد المقدس ، وأصبحوا من بنى إسرائيل . أما بعضهم الآخر فلم يبلغ من التحمس هذا المبلغ ، مكتفياً بارتياد الحلقات التى كانت تقام على أعتاب المعابد ، بصفة منتظمة أو غير منتظمة ، وبالمساهمة المادية فى نفقات هذه المعابد ، ثم باعتناق الكثير أو القليل من العادات والتقاليد الخاصة بالحياة اليهودية ، على قدر ماكانت تسمح به مكانتهم الاجتماعية . وسموا سن أجل ذلك بـ « المتقين الله » . ولاشك فى أنه قد تكونت منهم جموع غفيرة بجوار الطوائف اليهودية الكبرى فى الشرق وفى مصر . أما فى روما فمن المؤكد أن بعض أعضاء الطبقات الشريفة ، وبخاصة منهم النساء ، قد انضموا إليهم مع آخرين من مختلف الأوساط الاجتماعية .

ولم يكن يهود المهجر قد احتفظوا بالصورة الأصلية الكاملة لعادات وروح إخوانهم فى الدين من أهل فلسطين . فقد لانت تلك العادات وتلك التقاليد ، ولان معها تعصبهم وعداؤهم لـ « الأجنبى » فى ربوع هذه البلاد التى لم تكن لترضى بهم لولا ذلك ؛ وأقاموا صلات يومية مستمرة بمجتمعات « الكفرة » ، وتأثروا فى قوة وعمق بتيارات الثقافة اليونانية التى انغمسوا فيها شيئاً فشيئاً فإذا ما تركنا جانباً عقيدتهم الدينية وفروض طقوسها الأساسية ، وجدنا أن هؤلاء اليهود – بعد جيلين أو ثلاثة من الهجرة – لايفترقون فى لغتهم ومظهرهم وثقافتهم العامة ، عن الإغريق الذين يماثلونهم فى الظروف الاجتماعية . وأظهر الذين

ارتقوا منهم إلى أعلى مراتب التعليم إعجاباً عميقاً بأدب اليونان وفلسفتهم ، وامتزج فكرهم بهذا الأدب وهذه الفلسفة إلى حد الشعور بأنه لم يعد فى استطاعتهم التخلى عنهما لإرضاء الشريعة الموسوية ، كما لا يستطيعون التخلى عن تلك الشريعة فى سبيلها . لهذا نرى فيلون – وهو المثل الواضح لهؤلاء اليهود الذين تشبعوا بالروح اليونانية – نراه فى الإسكندرية يحاول مخلصاً أن يبرهن على عدم التعارض بين الوحى الذى نزل على موسى والأحكام التى جاء بها وبين نظريات أفلاطون وزينون ، وعلى أن المرء لابد له من الاقتناع بذلك إذا أحسن فهم مقاصد الفيلسوفين[1] .

لهذا أيضاً رأينا بعض العقائد التى عدّها يهود فلسطين عقائد أساسية ، تضعف وتذوب لدى إخوانهم باليونان ، مثال ذلك عقيدة انتصار الأمة اليهودية ، فقد ابتعدت عن الصورة القديمة لها مع ما امتازت به من تعصب وعنف وضيق أفق ، وأصبحت تنحو نحواً آخر هو الدعوة إلى فتح العالم كله لأسرار الحقيقة .

ومقابل ذلك رأينا اتجاهات فكرية ، غريبة على بنى إسرائيل الأصلاء ، تفرض نفسها عليهم وتؤثر فى مذاهبهم . ونذكر ، على سبيل المثال : تشبعهم شيئاً فشيئاً بالفكرة اليونانية التى تقول بازدواج الشخصية الإنسانية . فلم يعودوا يعلقون أهمية كبيرة على مصير الأجساد فى العالم الآخـر ، وراحوا يبذلون العناية كلها للتفكير فى مستقبل أرواحهم وتلك مسألة لم يكن يهود فلسطين قد شغلوا أنفسهم قط بإنشاء عقيدة واضحة فيها .

---

(١) انظر كتاب إميل برهيه : « التفكير الفلسفى والدينى عند فيلون الإسكندرى » ، باريس ، ١٩٠٧ .

ولاغرابة إذن فى تلك الظاهرة التى نلاحظها لدى الأتباع الجدد للدين اليهودى ، من الاحتفاظ بمقومات الثقافة والفكر المنتشرة فى بيئتهم الأصلية ، فلم يكن ثمة ما يدعوهم إلى احتقار تلك الحضارة التى صورها لهم معلموهم الأول على أنها أجمل الحضارات قاطبة وأكرمها بالنسبة إلى الإنسان العاقل . فإذا ما اعتنقوا اليهودية على نحو ما ، لم يكن ذلك إلا على أساس تطويرها مع اتجاهاتهم الفكرية ، وعدم التخلى عن الأراء أو تقاليد الحياة التى نشئوا عليها ، إلا فى حدود ما بدا لهم أنه يتعارض تمام التعارض مع ما يأخذونه من الدين الجديد .

ولهذه الأسباب كانت طوائف اليهود فى المهجر ، وكذلك طوائف « المتقين الله » أكثر استعداداً من يهود فلسطين لمناقشة ما يدعيه الحواريون ، ثم للاقتناع به إن بدت لهم الحجة قوية ؛ وقد أظهر « المتقون الله » ميلا خاصًّا إلى ذلك .

ولهذا أيضاً كان الخطر كبيراً على العقيدة العيسوية – وهى العقيدة البسيطة غاية البساطة التى أثبتت التجربة مرونتها الكبيرة – عندما انتقلت إلى المعابد اليهودية فى بلاد اليونان : خطر الانحراف والتطبع بخصائص الفكر اليونانى .

(ب)

ويتضح لنا هذا الخطر إذا علمنا أن اليهود ، فى بعض مناطق المهجر ، لم يكتفوا بالتطور الاجتماعى وفقاً للبيئة التى يعيشون فيها ، ولم يكتفوا بإعادة تنظيم عقيدتهم الدينية أو – على الأقل – تفسيرها لأنفسهم بما يتفق وثقافتهم مع صيانة جوهرها كاملاً لم يكتفوا بذلك ، بل راحوا يخلطون باليهودية بعضاً من أفكار ومعتقدات المشركين الوثنيين المحيطين بهم ، فى الوقت الذى كانت فيه

طوائف من المشركين الوثنيين تعتنق الكثير من المعتقدات اليهودية الأساسية لتزجها بأديانها المختلفة . ونحن لا نعلم شيئًا كثيراً عن التركيبات العديدة وتيارات التأليف[1] التى نشأت عن هذا التداخل ، إلا أن ما نلمحه منها خلال الوثائق يكفى للدلالة على أهميتها القصوى .

فإذا نظرنا مثلا إلى الجالية اليهودية ببلاد ما بين النهرين ، وجدناها تقيم فى مركز ممتاز بالنسبة إلى تأثيرات إيران وبابل ، وإن ظنت هذه الجالية أنها محصنة أمام كل تأثير أجنبى . وإيران وبابل هما البلدان اللذان نبعت منهما تآليف دينية بالغة فى الإغراب انتظمت فى مذاهب متفاوتة الانسجام لتفسير الوجود والحياة ، مذاهب للمعرفة الخاصة التى لا يرقى إليها سوى طليعة من الناس ، ولاتؤتى لهم إلا إلهاما أو بعد تدرج فى مراتب السلوك على أيدى العارفين . وعلينا أن نذكر على الأقل واحدة من التآليف الدينية التى نشأت فى هذه البيئة واتخذت من اليهودية عنصراً أساسيًّا من عناصرها : تلك هى المانداثية ، وهى نوع من التوحيد بين اليهودية وبين العقائد البابلية . ويبدو أنها كانت ، فيما بعد ، أساساً مبدئيًّا لإنشاءات دينية أخرى تهم تاريخ المسيحية .

وثمة جالية ثانية تهمنا كثيراً فى نفس المجال ، هى تلك التى كانت تقيم ببلاد الفريجيين . وقد امتازت هذه البلاد ، خلال كل العصور القديمة ، بحياة دينية نشيطة ، فلما جاء إليها اليهود شكلوا بادئ الأمر جماعة أو جماعات منعزلة عن مجتمعات الوثنيين ، ولكنهم لم ينجوا فى النهاية من تأثير هذه المجتمعات كما أثروا فيها بدورهم . ونتيجة لذلك رأينا المشركين يتبنون الكثير من المعتقدات الدينية

---

(١) Syncretisme وهو الاسم الذى تعارف الكتاب على إطلاقه على الإنشاءات الدينية التى تنتظم عناصر نابعة من أديان مختلفة .

اليهودية ويمزجونها بمعتقداتها المحلية . وكانت العبادة التى اختص بها الفريجيون فى ذلك العصر هى عبادة « الأم الكبرى سيبيل » ورفيقها « أتيس » . وقد لقب الأخير بلقب « هيزستيوس » ، أى : « الأعلى » ، وهو لقب يهودى الأصل ، يوازى فى معناه ما نجده فى عقيدة كلدانية أخرى تقول بأن مقام الآلهة « فوق الطبقات الكونية السبع والسماء بنجومها » كذلك إذا أردنا تقصى أصول الألفاظ ، فإنه يمكننا القول فى يسر بأن اسم « سابازيوس » وهو اسم الإله الفريجى الذى يعادل جوبيتير أو ديونيزيوس – ليس سوى « ساباوت » اليهودى ، وإننا لنلمح من خلال الوثائق الغامضة – ولشد ما نأسف لعدم وضوحها – فرقاً من أنصاف اليهود « الهيستيين » و « السبتيين » أو « السابازيين » تشارك جميعها فى أمل واحد هو : النجاة فى عالم خالد والحياة السعيدة إلى مالانهاية بعد الموت ، بواسطة شفاعة « منقذ إلهى » . وإن وحدة الروح بين أعضاء كل من هذه الفرق لتتمثل فى مشاركتهم فى مأدبة تقام حسب طقوس معينة وفى جو من التعبد والتقرب إلى الإله . ولعل أمثال هذه المآدب قد ارتقت منذ ذلك الحين إلى مرتبة أسرار القربان المقدس ، أى : أن من شأنها إفاضة العناية الإلهية على المشتركين فيها ، أو تأهيلهم خاصة لهذه العناية[1] .

ونشاهد نشأة تركيبات وامتزاجات مماثلة بين العقائد فى بلاد أخرى ، نخص بالذكر منها : مصر وسوريا . وسوف نحدد فيما بعد تأثيراتها المختلفة على التفكير الدينى لدى القديس بولس .

وإذن فقد تشكلت الفرق العديدة القائمة على أساس من اليهودية للتأليف بين العقائد وللمعرفة الباطنية ، وانتشرت خاصة حول فلسطين ، وليس من

(١) انظر كتاب كومون : « الديانات الشرقية فى العبادات الرومانية » باريس ، ١٩٠٩ .

المستبعد أن تكون قد تفرعت بين ربوعها ، فى العصور السابقة لمولد المسيح ، بفضل وفود الحجاج الكبيرة إلى القدس من يهود المهجر فى مواسم الاحتفال بأعيادهم السنوية .

وإنا لنقرأ عن فرقة من هذه الفرق – فرقة « الناظوريين » التى انتشرت على ضفاف نهر الأردن قبل مولد المسيح – نقرأ عنها فى كتابات أحد المؤلفين المسيحيين من القرن الرابع هو القديس إبيفان . ولم يكن هذا الكاتب بالمنصف فى كل ماكتبه ، إلا أنه استطاع أن يجمع المعلومات الواردة عن أمثال تلك الفرق الشرقية . ويحدثنا ببعض التفصيل عن فرقة (الناظوريين) فيقول إن أتباعها لم يعترفوا بمعبد اليهود كمركز لطقوسهم ، ولكنهم ساروا على تقاليدهم الأخرى ، ولم يقبلوا الشريعة اليهودية على أنها شريعة إلهية ، متأثرين فى ذلك بالتيارات الفكرية الخارجية ، ثم إنهم كانوا يعدّون أنفسهم « قديسين » بالنسبة إلى بقية البشر – وكان هذا رأى المسيحيين الأول أيضاً فى بدء دعوتهم . ومن ناحية أخرى ، يمكن أن نفسر الاسم الذى اتخذوه لفرقتهم بالرجوع إلى كلمة « ناظر » العبرية ، التى ترجمها اليونان بكلمة « هاجيوس » ، أى : « قديس » وينطبق هذا التفسير أيضاً على اللقب الذى أطلق على عيسى . وكان هؤلاء الناظريون فى أغلب الظن شديدى التحمس لفكرة حلول مملكة الله .

ولعلهم كانوا السابقين إلى التفكير فى « المسيح المنتظر » ، وإلى القيام بطقوس معينة من أجله ، على غرار ماكانت تقوم به فرق أخرى أكثر إغراقا فى الشرك منهم بالنسبة إلى « الإله المنقذ » الذى تتهيأ له ، متأثرة فى ذلك باتجاهات دينية خارجية مختلفة .

وإن ما تجمع لدينا من معلومات لاتكفى لأن نقطع بالرأى فى كل ما يتعلق

بهذه الفرق اليهودية التى نزعت إلى تأليف وتطوير عناصر مختلفة من الأديان الموجودة حينذاك . غير أن مجرد وجودها يدل دلالة واضحة على اتصال الروابط بين اليهودية بمعناها الحقيقى وبين الأديان الأخرى المختلفة فى غربى آسيا ، تلك الاديان التى شاركت اليهودية فى فكرة ترقب أو عبادة « منقذ إلهى » ، وإن تفاوتت أشكال هذا الترقب وتلك العبادة .

ونتيجة لهذا : يمكن القول إن انتشار فكرة حلول مملكة الله الفلسطينية الأصل خارج حدود فلسطين فى صورة مجددة ، ودراسة الكثير من معابد المهجر اليهودية لهذه الفكرة بعين الاعتبار ، ثم تسربها إلى المجتمع المحيط بالمعابد مثل رواد « حلقات العتبة » ، بل إلى مجتمعات قد تكون أقل صلة بالمعابد من هؤلاء يمكن القول إن كل ذلك ليس بالأمر الغريب بداهة .

ويدل وجود هذه الفرق أيضاً على أن عقيدة وتقاليد معابد المهجر كانت أكثر ليونة وتقبلا للتطور من مثيلاتها فى ربوع فلسطين ، وأنه كلما ابتعد اليهود عن المعبد الأكبر – معبد القدس – وكهنته ، أصبح تعصبهم للشريعة اليهودية ضعيفا أمام بعض العوامل الخارجية ، فيتزعون فى بعض الأحوال إلى التعبير عن شعورهم الدينى فى صورة أقرب إلى الفطرة وأكثر انسجاماً مع المشاغل الدينية العامة للوسط الذى يعيشون فيه والذى لم يكن له بد فى النهاية من التأثير عليهم .

وبعبارة أخرى ، نستطيع القول بأن اليهود و « أنصاف اليهود » خاصة فى المهجر ، كانوا – فيما يبدو – أكثر استعداداً لقبول دعوة أصحاب عيسى من يهود القدس وفلسطين . هذا وإن كان الخطر كبيراً على هذه الدعوة أن تصبح عنصراً جديداً ومؤثراً لا يعرف مدى قوته ، يضاف إلى كل تلك العناصر

والمؤثرات الداخلة فى التركيبات الدينية المعقدة لدى الكثير من الطوائف التى ذكرناها .

(جـ)

مرت دعوة أصحاب عيسى فى عبورها من ربوع فلسطين إلى أراضى المهجر بأدوار غاية فى التسلسل ، وكأنها أدوار حتمية لامرد لها . فمجموعة « أعمال الرسل » تقص علينا أن الحواريين استمالوا إلى عقيدتهم بعض يهود اليونان الذين وفدوا إلى القدس فى الاحتفالات الخاصة ببعض الأعياد . وعادت فئة من الحجاج إلى ديارها فور انتهاء هذه الاحتفالات فى حين بقيت فئة أخرى بالمدينة المقدسة ، غير أنها لم تلبث أن طردت منها إثر مقتل الشماس إتيين على أيدى قضاة اليهود . وكان إتيين هذا قد تخصص فى شرح وإذاعة الانجيل بين رحاب القدس التى ينفق عليها يهود اليونان (انظر : « أعمال الرسل » ، ٦ / ٩ وما يليها و ٧ / ٥٧ ومايليها) .

ورحل الأنصار الجدد المطرودون . . رحلوا إلى فينيقيا وقبرص وأنطاكية ، حيث راحوا بدورهم يبشرون بعيسى فى المعابد (انظر : « أعمال الرسل » ، ١١ / ١٩ ومايليها) .

« وتحدثوا أيضاً إلى أهل اليونان » ، أى : إلى « المتقين الله » ، « وآمن الكثير من هؤلاء اليونانيين بالسيد المسيح » .

ولم يكن أصحاب عيسى هم السبب فى هذا النشاط ، بل لم يكن يدور فى خلدهم تدبيره ؛ فلما علموا بنتائجه ، بعثوا إلى انطاكية برسول مؤتمن ، يدعى برنابا ، ليدرس هذا الموقف الذى يبدو أنه أثار لديهم الشكوك والقلق . غير أن

حماس الأتباع الجدد لم يلبث أن انتقل إلى برنابا نفسه الذى رأى فى ظاهرة انتشار الدعوة نفحة إلهية فوقف كل جهوده فى إخلاص عميق لمواصلة هذه المبادأة المثمرة فى مجال العمل التبشيرى. ورحل إلى طرسوس حيث كان يقيم حينئذ بولس ، وعاد به إلى انطاكية ليشركه فى عمله ، وكان بولس هو الدعامة الكبرى للمسيحية المستقبلة .

إننا نعلم تماماً أن الحواريين الاثنى عشر والأتباع المباشرين لعيسى لم يكونوا ليستطيعوا القيام بنشاط يذكر فى القدس ، بل كان موقفهم هو موقف أستاذهم فيما مضى ، وكانت تتهددهم الأخطار التى هددته . وكانوا بدلا من تبشير الأستاذ بوشك « حلول مملكة الله » يبشرون بـ « عودة السيد المسيح » ، إلا أن هذه وتلك صنفان من الادعاءات التى لابد أن تضعف أركانها إذا طال انتظار تحقيقها . لذلك كان من العسير أن نبين ، على وجه التحديد ، ماقام به أصحاب عيسى الأول من أعمال . لقد تجمعوا حول بطرس وحنا اللذين يبدو أنه قد انضم إليهما إخوة الأستاذ فى زمن مبكر ، إذ أن بولس نفسه يقول عن أحدهم – وهو يعقوب الأصغر – إنه كان يعيش مع بطرس بين مجموعة من أتباع عيسى بالقدس .

وغالب الظن أن هؤلاء الأتباع عاشوا عيشة تمتاز بالحيوية خلال إقامتهم فى المدينة المقدسة ، ولم يبتعدوا عنها كثيراً .

وتدعى بعض الأساطير اللاحقة أن أندريا قد ارتحل إلى بلاد السيخ ، فى حين توجه يعقوب الأكبر إلى إسبانيا ، وأخوه حنا إلى آسيا الصغرى .وتوماس إلى الهند والصين ، وبطرس إلى كورينثيا وروما . وليست قصصهم جميعاً بالضاربة فى الخيال ، إلا أن الجزم بصحة أى منها أمر محال .

وخلاصة القول أنه لم يتبق لدينا أى معلومات يمكن الاعتماد عليها عن حياة أصحاب عيسى المباشرين ، سوى الفصول الاولى من مجموعة « أعمال الرسل » . وحتى هذه الفصول لم تصل إلينا إلا فى نسخة تختلف كثيراً - وبصورة تدعو إلى الشك - عن النص الأول .

وإن هذا الصمت ليدعو إلى الاعتقاد بأنهم لم يقوموا بأعمال خارقة . والمرجح أنهم لم يكونوا ليستطيعوا ذلك .

ولعلنا نستطيع القول بأن بطرس ويعقوب الأكبر ويعقوب الأصغر وأيضاً - فى غالب الأمر - حنا ، ماتوا قتلى . وقد نستطيع أيضاً أن نتتبع - من خلال كتابات المؤلفين الذين تخصصوا فى الفرق الدينية[1] - تلك المجموعات الدينية الصغيرة التى أنشئوها على أساس من العقائد اليهودية ، والتى التجأت إلى الأراضى الواقعة جنوب نهر الأردن فى أثناء الثورة اليهودية الكبرى عام ١٦٦ . وبدت تلك المجموعات منذ وقت مبكر متأخرة كثيراً فى عقيدتها عما يؤمن به المسيحيون فى ربوع اليونان ، ولم يمض القرن الثانى للميلاد حتى أصبح هؤلاء المسيحيون ينظرون إليها نظرة استياء ، وأثرها المباشر على تاريخ المسيحية لا يكاد يذكر .

أما الروح الجديدة التى أحيت المسيحية فقد أتتها من بيئة أخرى .

---

(١) أمثال القديس إيرينيه فى القرن الثانى ، ومؤلف الـ « فيلوسوفومينا » المجهول فى القرن الثالث ، والقديس إبيفان فى القرن الرابع ، إلخ . .